تعريف ونقد

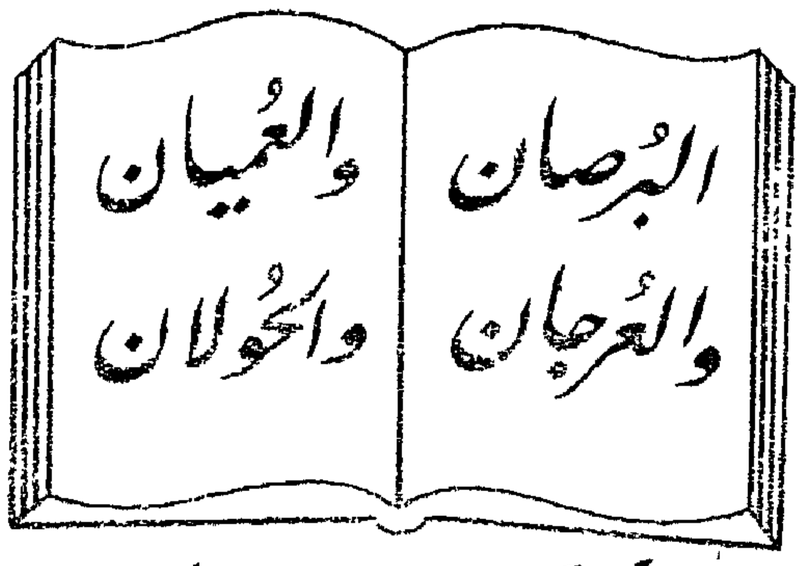

تأليف :
أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ

تحقيق : الأستاذ حسن السندوبي
تعريف ونقد : الأستاذ عبد العزيز ميمني

يقول

محقق هذا الكتاب فى التقديم له : (هذا الكتاب كتاب نادر . مما جادت به قريحة شيخ العربية وأديبها الأكبر أبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ .... نادر فى وجوده ونادر فى مادته . أما فى وجوده فقد كان مفقودا تماما. ولم يعثر على نسخة منه إلا منذ زمن قريب. ويبدو أنه كان نادرا كذلك فى العهود القريبة من عهد المؤلف . ذلك لأننا لا نرى له ذكرا فيما عدا كتب الجاحظ نفسه - إلا فى عدد قليل جدا من المراجع ...)

وعجيب جدا أن تختلف حظوظ المؤلفات التى ألفها الجاحظ مابين إقبال وإدبار . وسعد ونحس . ورواج وكساد . فإن من كتب الأديب الجاحظ ما انعقدت له شهرة ودار دوران النجوم ، وسار مسيرة الشمس فى كل زمان ومكان ، مثل البخلاء والحيوان والبيان والتبيين . ومنها مالم تره عين ، ولم تسمع به أذن إلا الآذان الواعية ، والعيون المتنبهة ، مثل كتاب (البرصان والعرجان والعميان والحولان ...) فما السر فى هذا الكساد الذى لم ينكب به كتاب من كتب الجاحظ ؟

أهو نفاسة الكتاب وقيمته الكبيرة التى جعلت الناس يضنون به فى خزائن كتبهم الخطية ، فلا يسمحون له بأن يعار أو يخرج من بطون الديار ؟ أهو عنوانه الذى يوهم أنه من كتب الطب المنفرة من مثل هذه الآفات والعلل المزعجة التى قل أن يلتفت إليها إلا أهل الاختصاص . والقلة من الخواص ؟

أهو ندرة ما انتسخ منه ، فلم تتوزع

نسخ خطية منه على محبي الكتب إلا على أضيق نطاق ، وأصغر مجال ؟

وأيا ما كان الأمر فقد استطاع قدر سعيد أن يحفظ هذا الكتاب من الضياع . وأن يبقى عليه لكى يجيء محقق مصرى بعد أكثر من أحد عشر قرنا فينشره على الناس . ويلقى عليه من الأضواء مايعرضه عن ظلمات الحجب التى كان غارقا فيها خلال تلك القرون .

والنسخة المنفردة الوحيدة فى العالم كله شرقيه وغربيه التى بقيت من هذا الكتاب هى نسخة عثر عليها فى المغرب منذ أربعين عاما لاتزيد . وإذا كان لابد من عزو الفضل إلى أصحابه ، والجهد المخلص إلى أربابه . فإن الدكتور صلاح الدين المنجد المحقق الباحث المعروف هو صاحب الفضل فى تصوير هذه المخطوطة وجلبها إلى خزانة معهد المخطوطات التابع لجامعة الدول العربية .

ولن نتحدث هنا عن هذا الكتاب والظروف التى مرت به فإنما ندع ذلك للمقدمة المفيدة الطريفة التى كتبها المحقق الأستاذ محمد مرسى الخولى وصدرها الكتاب فى طبعته الأولى التى نشرتها دار الاعتصام للطبع والنشر ببيروت والقاهرة من عهد غير بعيد .

والكتاب طريف فى موضوعه : فهو لايتحدث عن أصحاب العاهات حديث شفاتة أو مجرد أخبار : ولكنه يجعل من هؤلاء المؤوفين مثلا عالية فى الذهاب فى آفاق الحياة إلى أبعد نطاق . فلم تقعد بهم عاهاتهم عن إدراك غاية مما يسعى إليه القادرون الأشداء الأصحاء . ولم تقف الآفات والعلل — على عظم خطرها ، أو بشاعة منظرها — حجر عثرة فى طريقهم ، ولم تقعد بهم عن أن يصلوا إلى مراتب الزعامة والقيادة وسيادة الرجال . فهو كتاب يحيى الهمم لايميتها ، ويشحذ العزائم لايثبطها .

ويمتلئ الحاحظ فى خلال الحديث عن الآفات والعاهات البشرية - كالبرص والعرج والعمى ، والحول - بالأمثلة الحية المستمدة من واقع التاريخ العربى الإسلامى للرجال ؛ فهو يضع يديك على رجال بأعيانهم أصيبوا ببعض العاهات ولكنهم لم يذلوا لها ، ولم يخضعوا لسلطانها ، بل حاولوا التعويض عن النقص الحسى ، بفضائل جسدية أونفسية أخرى . يكون فيها عزاء عما أصيبوا به ..أو نكبوا فيه ...ثم لايلبث أن يقص عليك من أخبار هؤلاء الأفذاذ ماتجد فيه أدبا خالصا ، وفضلا ذائعا . ثم لايلبث أيضا أن يستطرد فى الحديث من علة إلى علة . ومن آفة إلى آفة ، ولايقف

عند الآفات فى الإنسان . بل يتجاوزها إلى العلل فى الحيوان والنبات . على عادته فى التتبع ومواصلة البحث .

والحق أن المحقق قد بذل فى تحقيق هذا الكتاب ماوسعه من الجهد . وإن كان محتوى الكتاب أكبر من جهده . وأوسع من طاقته . وأضخم من إمكانياته المتاحة... ففى الكتاب مثلا شعر كثير يكاد ينفرد الجاحظ بروايته فلا يجده الباحث فى كتاب آخر يستعين به على تحقيقه وتقويم نصه. ومن هنا جاءت العقبة ، وخاصة أن المخطوطة المحققة وحيدة فى العالم كله ، لاثانى لها ، ولامؤنس لها . ما أشق تحقيق النسخة الخطية المفردة . لأن مقابلة النصوص تعين على توضيح النص المراد . كما أن الجاحظ كثيرا مايستشهد بشعر مجهول لايعرف أين مظنة وجوده ، ولا من هو قائله... فيختلط الأمر على المحقق مهما كان مبلغ علمه ، وقدر إحاطته. ومن هنا كان تحقيق هذا المخطوط النادر للجاحظ عملا تعيا به الفحول ، ويعجزعنه المتمرسون بتحقيق التراث. وقد التمس محققنا الفاضل لنفسه العذر فيما قد يقع فيه من أوهام يكشف عنها قارئ واع أو باحث فطن ، فقال فى المقدمة ، وكأنه يمهد لنفسه عذرا : (أما التحقيق فقد بذلت فيه من الجهد ما الله وحده عالم به والمهتمون كذلك بالمخطوطات وتحقيقها يدركون مافى تحقيق المخطوطات ذات الأصل الواحد من الغرر والمزالق التى تزل بها قدم الحريص الواعى المتمكن . وقد يهون الأمر إذا كان الكتاب ذا موضوع عام يجد له محققه من المراجع الكثير الذى يعوضه عن النسخة الواحدة . فما بالك والنسخة ذات خط مغربى . كثيرة التحريف والسقط ؟ ثم إن موضوع الكتاب موضوع فريد لاتجد له كثيرا من المراجع التى تأخذ بيدك فتهديك الطريق) :

على أن الأعذار التى قدمها المحقق ومهد لنفسه بها بين يدى رسالته الجليلة فى المقدمة ، لاتسقط عنه المسؤولية التى اضطلع بها منذ تولى العمل فى تحقيق الكتاب. فلو أنه ضاعف من جهده بعض الشىء لتفادى كثيرا من الأوهام التى وقعت فى التحقيق ، ولسد الخلل الذى يشوه هذا المؤلف الثمين للجاحظ ، ولأغنى القارئ والباحث عن كثير من المزالق التى وقع فيها . ولكنه على كل حال مشكور على مابذل من جهد ، فإنه لم يجنح إلى تواكل ، أو يفتر عن سعى ، ولكن الكتاب حقا على تفرد نسخته ، ورداءة خطه المغربى ، وندرة موضوعه ، وعدم دوران الشعر الذى فيه على المراجع المتداولة ،

والمصادر المألوفة المعروفة يجعل من تحقيقه عملا صعبا بالغ الصعوبة، ثم زادت هذه الصعوبة بأخطاء الطبع الكثيرة التي ضخم منها وجسم فيها أوهام الضبط بالشكل الكثيرة حتى بات مايستحق السكون مضموما ، وما يستوجب الفتح مكسورا ، بصورة تستفز السخط وتستثير الغضب ، فقد كان عن ذلك مندوحة وخاصة أن حروف المطبعة جيدة، وورق الكتاب جيد . فلم يكن هناك محل- مع همة المحقق وعزمته - لوقوع هذه الأخطاء التي شوهت من قدر هذا الكتاب الثمين الذي يرى نور المطابع لأول مرة .

ولن يتسع المجال هنا لتقصي ماورد في التحقيق والضبط من أوهام ، ولكننا سنكتفي ببعض النماذج استدلالا بالقليل على الكثير ، راجين أن يتاح للمحقق الفاضل: الدكتور محمد مرسي الخولي من العافية والاطمئنان مايعينه على مراجعة التحقيق مرة أخرى حتى يظهر كتاب الحاحظ في طبعة جديدة موفية على الكمال ، متناسبة مع خطر الكتاب وقيمته وجلال موضوعه . وإلى القارئ الكريم بعض هذه النماذج :

ـــ صفحة ح من المقدمة : (أن هؤلاء قالوا في جملتهم أدب كثير ، فمنهم الصابر ومنهم الحازع ، كما قالوا في تغلبهم على ضعفهم أدب أكثر) . والصواب : أدبا كثيرا ، وأدبا أكثر .

ـــ صفحة ك من المقدمة : (والمهتمين بالمخطوطات وتحقيقها يدركون ...) والصواب : والمهتمون .

ـــ صفحة ٦ من الكتاب : (وليس سوء الظن في الجملة بالمذموم ، ولا بحسن الظن بالمحمود ...) والصواب : ولا حسن الظن .

ـــ صفحة ٨ : (وكذلك حكم عن غسّل الموتى (والصواب : من غسل الموتى .

ـــ صفحة ١٠ : (وهما لايستفزان ولا يتقزز منها ولا يتعديان ولا يظن ذلك بهما ، ولا ينقصان من تدبير ...) والصواب : ولا يُعديان . بضم حرف المضارعة لأن الفعل رباعي . ولاينقصان : بفتح حرف المضارعة ، لأن النعل : نقص : ثلاثي لا رباعي .

ـــ صفحة ١٨ ، ورد البيت الاتي هكذا من الشعر المنسوب لأبي طالب :

وأنا ابن بجدتها في صبابتها
وسليل كل مسود مفضال

والشطر الأول مضطرب مكسور الوزن

ـــ صفحة ٢٧ ، ورد البيت الآتى هكذا :

فحبسناهم حتى أضاء لنا

من الصبح مشهود الشواكل أباق

والشطر الأول من البيت مضطرب مكسور الوزن

ـــ صفحة ٢٧ : (وسموا أيضا قصير السموءل بن عادياء : الأبلق (بوضع شدة وضمة على الميم من الفعل : سموا ، والصواب أن توضع شدة وفتحة ، لأن الفعل : سمىّ معتل بالألف ، فيفتح ماقبل الواو . وقد تكرر هذا الوهم الغليظ فى صفحات تالية منها ص ٢٨ ، ٦٨ ، ٧٢ .

ـــ صفحة ٣١ : ورد البيت الآتى للشاعر النابغة الذبيانى هكذا :

بوجه الأرض لايعفو لها أثر

يمسى ويصبح فيها البلق ضلالا

والشطر الأول مضطرب مختل الوزن

ولم أهتد لصوابه على هذه الصورة ، إلا أن روايته فى ديوان النابغة هكذا :

ما إن يبل ولم يوجد به أثر إلخ ...

ـــ صفحة ٣٩ : (وليس يعترى السودانُ من كى البلاء كالذى يعترىِ الشقرانُ) بضم كلمتى : السودان ، والشقران ، والصواب فتحهما لأنهما منصوبان على المفعولية لامرفوعان على الفاعلية ...

ـــ صفحة ٤٠ : جاء البيت الآتى مضبوطا بالشكل هكذا :

فما منكمو أبناءُ بكرين واثل

لغارتنا : إلاذلول موقّع

بضم الهمزة الأخيرة من كلمة أبناء ، والصواب فتحها لأنها منادى محذوف منه حرف النداء

ـــ صفحة ٤٧ جاء البيت الآتى من شعر معاوية بن سنان الكلبي :

فقام فتى وشوشى الذرا

ع لم يلبث ولم يتهمم

والشطر الثانى مكسور ، لأن صوابه : لم يتلبث .

ـــ صفحة ٤٨ : (وإنما صارت ألوانُ سكانِ إقليمَ بابلَ) بفتح الميم من كلمة :

أقليم ، والصواب كسرها ، فلا مقتضى هنا للجر بالفتح نيابة عن الكسر ، لأنه ليس من مواضعه .

ـــ صفحة ٥٩ ، ورد البيت الآتى من شعر أوس بن حجر :

نفات من فات من عامر

ركضا ، وقد أعجل أن يابجا

والشطر الأول مكسور لأنه ناقص .

وصوابه : ففات من قد فات من عامر

ـــ صفحة ٦٣ ، ورد البيت الآتى من شعر عجلان بن سحبان مضبوطا بالشكل هكذا :

ولا كأخي ذُهَل إذا قام قائلا
ولا الأسلع الحمال حين يجيب

وقد ضبطت : ذُهَل بفتح الهاء على وزن : مضر . وهو وهم ، والصواب : ذُهْل بتسكين الهاء كما هو اسم القبيلة المعروف . وقد تكرر هذا الوهم فى ص ٦٥

ـــ صفحة ٧٥ ورد البيت الآتى من شعر السيد الحميرى :

فيانفس حتى متى تُلَيِّطين
على الخائن الأول المرتشى

والشطر الأول مكسور ، لأن الفعل ليس تليطين كما ضبطه المحقق ، ولكنه :

تلتطين ، وماضيه : التطى ، أى التصق

ـــ صفحة ٨١ : (وزعموا أن بنى نمير برصا) ، وصوابه : بُرْص لأنه لاداعى لنصبه مع وجود الحرف : أن .

ـــ صفحة ٩١ : ورد البيت الآتى من شعر جرير هكذا :

إذا ظل يحسب كل شخص فارسا
ويرى نعامة ظله فيحول

والصواب : إذ. كما فى ديوان جرير ص ٤٧٥ . والبيت ينكسر وزنه مع إذا

ـــ صفحة ١٠٦ : (حتى صاروا إذا سلُوا السمن طيبوه بها (بضم اللام من الفعل : سلوا . والصواب فتحها . لأن الفعل : سلى معتل بالألف ، فيفتح ما قبل الواو . شأنه فى هذا شأن الفعل : سمىّ الذى ذكرناه من قبل .

ـــ صفحة ١١٣ ، ورد البيت الآتى من شعر النابغة الذبيانى هكذا :

هذا غلام حَسَن وجه
مستقبل الخير . سريع التمام

والصواب : وجهه ، بهاءين : الهاء الأولى من بنية الكلمة ، والثانية هاء الضمير

ـــ صفحة ١٢٢ ، ورد البيت الآتى من شعر ابن صعصعة هكذا :

وقد فتن الناس فى دينهم
وخلاّ ابن عفان حزنا طويلا

وقد رسم الفعل : خلىّ بمعنى ترك . بالألف ، والصواب : وخلى

ـــ صفحة ١٣٨ . جاء البيت الآتى :

ياأعرج الرجل ، صغير الجرم
وناقص الصور ، خبيث الاسم

وقد فسر المحقق فى هامش الكتاب لفظة الصور . بأنها (جمع صورة . وهى الشكل) وليس هذا بصحيح . والصحيح أن الصور لفظ مفرد . لاجمع . بمعنى صفحة العنق .

ـــ صفحة ١٤٠ ،ورد اسم عمرو بن العاص بغير واو فى لفظة عمرو . وهو من أخطاء الطبع .

ـــ صفحة ١٤٦ . ورد الرجز التالى هكذا .

يمشى اليها سيمات نهد
مشى العذارى بينهن ود

ولا معنى للسيمات هنا . بالأضافة إلى أن الوزن مختل بها . والصواب :

يمشى إليها ذو سمات نهد

ـــ صفحة ١٥١ جاء الرجز التالى لأبى نواس فى رثاء خلف الأحمر :

كنا متى مانشأ منه نغترف
رواية لا نجتنى عن الصحف

والشطر الأول مضطرب الوزن . وصوابه كما فى ديوان أبى نواس :

فكلما نشاء منه نغترف ...

ـــ صفحة ١٥٨ . ورد البيت الآتى هكذا :

أعينى فابكى شبابا وأعولى
إذا أجدب الماشى وقل اللواقح

والشطر الأول مكسور . وواضح أنه ينقصه بعض الحروف لتكتمل التفاعيل

ـــ صفحة ١٨٩ . ورد الرجز الآتى هكذا :

ياسعد كيف أنت إذا أصحابى
عاتبتهم فتركوا عتابى

والشطر الأول مختل الوزن ، وصوابه .

(إذ) بدلا من (إذا)

وبعد : فلا أود أن أطيل فى ذكر نماذج مما وقع فى كتاب (البرصان والعرجان) من أوهام التحقيق . فلكل باب إذا افتتح لايسلم . وأرجو أن يرفق الله محققه . وهو من يعلم بضاعته تزجى . وجهاده كبير . إلى إعادة تحقيقه على وجه يقارب ما تركه عليه الجاحظ . حتى ينتفع به على وجه تم به الفائدة . ويتحقق المصلحة والله الموفق

محمود عبد الغنى حسن